اليهودية *

(أحمد شلبي)

مراجعة سعد سعيد الديوه جي

والكتاب الذي اخترناه على ما نعتقد يُمثِّل نمطاً رائجاً لكتب ومقالات كُتِبَت بِحُسن نية واندفاع شديدين وفي حمأة الصراع الإسلامي ـ اليهودي، فجرتنا هذه الحمية إلى مهاوي نسيان كتاب الله وسنة رسوله وتعاليمه، فصرنا نكتب كما يكتبون عن جاهلية وتعصب أحمق باسم الموضوعية والعلمية وغيرها من المصطلحات الرنانة والطنانة.

وهذا الكتاب هو كتاب «اليهودية» من سلسلة «مقارنة الأديان» للدكتور أحمد شلبي، وما نحب أن نؤكده للمرة تلو المرة أننا لا نقصد التجريح بشخص معين ولا بعلمه ولا نحن بالموقع الذي نسمح به لأنفسنا بالتجريح بالمسلمين وبمفكريهم. وكل ما نعنيه أن النظرة الإسلامية الخالصة والمعيار القرآني الرباني يجب أن تحكما في فكرنا الديني الإسلامي الذي يمثله كل الأنبياء بدءًا بسيدنا آدم وانتهاءً بسيد المرسلين محمد (عليه الصلاة والسلام). والذي رأيناه في هذا الكتاب هو الانسياق وراء آراء المستشرقين والمفكرين الغربيين حول بعض القضايا في الفكر اليهودي وسيرة اليهود، وهي آراء مشوشة لا تعتمد إلا على الظن أو التخمين أو الاستناد إلى روايات العهد القديم المحرفة وأساطيره المتناقضة التي لا تنسجم مع الفكر الديني الإسلامي، وسير الأنبياء وقصصهم في القرآن الكريم.

(*) د. أحمد شلبي، سلسلة مقارنة الأديان: اليهودية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1992، ط. 10.

وأول شرك سقط فيه الكتاب كما سقط فيه عشرات من قبله وبعده هو شرك «الساميّة»، فالسامية بمفهومها الضيق (التحدُّر من صلب سام بن نوح) خرافة روجتها التوراة، ثم صيغت هذه الخرافة بصيغة علمية على يد عالم نمساوي يدعى شلوتسر عام 1781 بحذق بارع وبمهارة فائقة أو نتيجة تأثره بأساطير العهد القديم، والتي تؤكد أن اليهود من سلالة سام الذي باركه أبوه وما عداهم من سلالة حام وابنه كنعان الذي لعنه والده ولعن ذريته للأبد!!

ومن الواضح أن هذه الأسطورة وُضِعت أساساً لبلورة نظرية الشعب المختار أو الشعب المقدس الذي باركه الرب منذ بدء الخلق!!

لقد انتشر استعمال مصطلح السامية بدون حذر، وتحت تأثير الدعاية اليهودية وأشياعها، وصار يُخلط بينه وبين أصل الأقوام التي ظهرت في الشرق قديماً كالكلدانيين والآشوريين والفينيقيين والبابليين وغيرهم، والحقيقة أن هؤلاء الأقوام ومثلما أشار الدكتور أحمد سوسة* من الأصح أن نسميهم بالمفهوم الدارج الآني (عرباً) لأن المنطقة التي نزحوا منها تسمى الآن بـ «شبه الجزيرة العربية» وهذا ما أكدته الأبحاث التاريخية واللغوية والأنثربولوجية.

والكتاب الذي بين أيدينا يُعد نموذجاً صارخاً لتأثُّر المثقفين والمتعلمين بالدعاية (السامية)، ففي معرض حديثه عن سيدنا إبراهيم يقول الكتاب «إنه نشأ في أور الكلدانية وهو رئيس الأرومة السامية التي دخلت فلسطين قادمةً من العراق».

وهذه الجملة القصيرة وبالاستناد إلى التوراة يمكن للقارىء المدقق أن يقف عندها طويلاً، فالتوراة لا تقدم لنا أي تفسير عن سبب ولادة إبراهيم «السامي» في أور الكلدانية، والكلدانيون في نظر التوراة هم حاميون وعليهم صب نوح غضبه ولعنته للأبد، وليس في التوراة أو في القرآن ما يشير إلى أن سيدنا إبراهيم كان سيد قومه أو رئيس عشيرته. وأخيراً فإن سيدنا إبراهيم بعد خروجه من أور استقر وقومه في حران ثم سار لمصر ورجع منها ولم يستقر في فلسطين، وكل ما استطاع عمله

(*) د. أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1392هـ ـ 1972م.

شراء مقبرة له ولعائلته في ما يسمى الآن بمدينة الخليل، في حين بقي قومه رعاةً متجولين فيما يسمى الآن بصحراء النقب وسيناء إلى أن رجع أحفاده مرة أخرى إلى مصر في عهد يوسف عليه السلام. وقبل أن نغادر لمسألة أخرى لا بد أن نؤكد بأن التقسيم السامي والحامي والكنعاني للجنس الشرقي عموماً نشأ تحت تأثير أساطير التوراة والإيمان بها، وقد تبنى الفكر الغربي المسيحي بعد ذلك هذه الأساطير ووضعها في قالب علمي مدفوعاً بإيمانه بحرفية التوراة ونصوصها، فلما ساد تأثيره علينا أخذناها عنهم بدون تمحيص وروية، وعليه فيجب أن نتوقف عن استعمال هذه التقسيمات وترديدها مثلهم.

إن ربط (السامية) بالمفهوم التوراتي لنسل سيدنا إبراهيم وربطه بسام بن نوح من جهة ثم ربط ذلك بتسلسل بني إسرائيل من جهة أخرى يقود لمفاهيم خاطئة لا حصر لها، ومنها ما يقع فيه الكتاب المعني من أن قوم سيدنا إبراهيم تقوقعوا على أنفسهم وانعزلوا عن باقي الناس على عادة اليهود في كل مكان وزمان، وهذا الربط بين اليهود وسيدنا إبراهيم مثير للاستغراب، فالبعد الزمني بين ظهور اليهودية على زمن موسى عليه السلام وبين ظهور سيدنا إبراهيم واسع جداً، حيث يقول تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾(*) بالإضافة إلى أن دعوة سيدنا إبراهيم للتوحيد كانت دعوةً أمميةً شاملةً ولا يوجد ما يشير من قريب أو بعيد إلى انعزاليته وقومه في كل الكتب السماوية، وهو لا يمت بذلك لليهود بأية صلة إلا كونه جدّاً لنبي الله يعقوب «إسرائيل» وهو الذي يَعُدُّهُ اليهود كما نعلم جدّهم الأعلى وما لهم بذلك من علم إلا اتباع الهوى ولا غير.

وبعد أن نغادر فكرة السامية ومهاويها، نرى الكتاب ينزلق إلى هوة العنصرية والتعصب وما يلازم ذلك من سطحية وتفاسير متهافتة للتاريخ.

وفي محاولة لربط التاريخ المظلم لمصر بدخول سيدنا إبراهيم لها وما صاحب ذلك من تعاون الهكسوس مع العبرانيين يقع الكتاب في سطحية

(*) سورة آل عمران: الآية 66.

لا مثيل لها من نواح عديدة عقائدية وتاريخية، يقول الكتاب: «وفي أثناء عهد الهكسوس بمصر أصاب القحط أرض كنعان فاستأنف العبرانيون تحركاتهم تجاه مصر... ولأن الهكسوس ـ كما قلنا من قبل ـ كانوا يميلون للتعاون مع الأجانب ضد المواطنين شأن كل المستعمرين في كل زمان ومكان، ولذلك لقي إبراهيم من الهكسوس كثيراً من الترحيب والتقدير...!!».

إن من يقرأ هذا النص لا يتخيل سيدنا إبراهيم إلا فارّاً غازياً لاهثاً وراء الدنيا وعيشتها وطيباتها، فأين النبوّة ودعوة التوحيد التي اضطُهِدَ من أجلها في هذا النص؟ فسيدنا إبراهيم تَعذَّب وتَغَرَّب من أجل كلمة (لا إله إلا الله) كما يخبرنا بذلك القرآن الكريم، فهو نبي مرسل وصاحب دعوة حق لا صاحب دنيا يسعى وراءها كما يصفه لنا الكتاب.

إن ربط استيلاء الهكسوس على مصر وتبرير تعاونهم مع قوم إبراهيم لكونهم غزاةً مثلهم يمثل قمة السطحية والسذاجة في تفسير أحداث تاريخية وقعت قبل أربعين قرناً بمصطلحات معاصرة كالاستعمار والوطنية والقومية وما إلى ذلك، وهذه السطحية أوقعت الكتاب في مغالطة تاريخية لا تخفى على كل مدقق وكاتب للتاريخ.

إن سيدنا إبراهيم كما تؤكد معظم مصادر التاريخ دخل مصر في عهد الفرعون (سنوسرت الثاني 1897 ـ 1877 ق.م.) أو (سنوسرت الثالث 1872 ـ 1843 ق.م.)(*). وكانت مصر مستقرة ومزدهرة في هذه الفترة في حين أن الهكسوس مكثوا في مصر من سنة 1830 إإلى سنة 1580 ق.م. وكما يؤكد الكتاب نفسه، والذي يذكر في موضع آخر أن دخول سيدنا إبراهيم لمصر كان واقعاً بين 900 ـ 1850 ق.م.

إذاً، ما الذي دفع الكتاب إلى الوقوع في براثن السطحية واللاموضوعية والتناقض التاريخي بين صفحاته المختلفة؟

(*) د. أحمد سوسه، تاريخ حضارة وادي الرافدين، ج 1، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، 1986م.

إننا نعتقد أنه التعصب أيّاً كان نوعه قومياً أم وطنياً أم دينياً والذي يلبس الثوب التجاري في شكل مؤلفات ذات عناوين باهرة تحاكي موجة العطش الفكري لموضوع ما هو المسؤول الأكبر عن ظهور مثل هذه المغالطات، ولتأكيد ما ذهبنا إليه نرى الكتاب يذهب بعيداً جداً في وصفه للصراع الهكسوسي - الفرعوني وعلى ضوء الآيات القرآنية التي تدين الأعراب والتي نزلت في ظرف معين من الدعوة المحمدية. وذلك لكون الهكسوس رعاةً، كما يشاع عنهم. إن المنطق الصحيح لا يلزم أن يكون الرعاة بدواً، فكثير من أهل المدن والأرياف يمتهنون رعي المواشي رغم استقرارهم وعيشهم في تجمعات ثابتة، وإنه لمن السخرية أن يدان الهكسوس الذين ظهروا قبل الإسلام بعشرات القرون بنفس الآيات التي أدان الله تعالى بها فئةً من الأعراب أيام الدعوة المحمدية. وفي هذا يقول الكتاب: والهكسوس هم الرعاة العماليق، وهم من الأعراب الذين ذكرهم القرآن الكريم فيما بعد بقوله: الأعراب أشد كفراً...!!

إن الكاتب المحقق والمحايد والذي يفترض أنه يتبنى وجهة نظر إسلامية عندما يروي أحداثاً تخص وطنه قبل أربعة آلاف عام يجب أن لا يستعمل ألفاظاً مثل «البطل المصري» الذي قاد معركة التحرير، ومثل «إتماماً للرسالة الوطنية الشاملة» وغيرها من الجمل التي لا مجال لذكرها في مثل هذه المواضيع والتي لا تُقال إلا في مدح القادة ومداهنتهم في مثل هذه الأيام، فالتاريخ لا يكتب بهذه الصيغ، ومهما بلغت بنا الكراهية لأعدائنا فيجب أن لا تدفعنا لكتابه التاريخ بسذاجة وسطحية.

ويقع الكتاب في نفس الهوة التي وقع بها مُحرِّفو التوراة عندما جعلوا الأنبياء هدفاً لهجومهم العنصري تبريراً لما في نفوسهم المريضة، فهو يهاجم سيدنا يوسف ويصوره على أنه صنيعة فرعون الهكسوسي وأنه استعمل المصريين الذين حلت بهم المجاعة فباع واشترى فيهم، وفي هذا يقول: «وأخذ يوسف يمنحهم القوت نظير ما يملكون من فضة وذهب وماشية وأطيان، بل اشتراهم أيضاً وجعلهم عبيد فرعون من أجل الطعام...!!»

وهكذا يدفع التعصب وما ينتج عنه من أفكار ساذجة إلى الكفر والمروق

والتطاول على الأنبياء والرسل، فابراهيم ويوسف وموسى وهارون هم أنبياؤنا ونحن معهم أمة واحدة هي أمة الإسلام والتوحيد ولا يجوز التطاول عليهم لأن اليهود يحترمونهم ويجلونهم؟!

وعلى نفس هذا النسق من السطحية يلصق الكتاب تهمه صنع العجل الذهبي الذي عبده بنو إسرائيل بسيدنا هارون وذلك بالاستناد إلى سفر الخروج (32/ 1 ـ 8) في حين أنه يذكر بالحاشية وبكلمات وجيزة جداً أن القرآن قد نسب هذا العمل لشخص سامري، وكأنما القاعدة ما ذكرته التوراة وما ذكره القرآن لا يعتبر سوى مجرد رأي يستحق النظر فيه، وإلا فماذا يعني ذكر ما يقوله القرآن بالحاشية وبهذه الصورة؟!

إن الوقوع في هذه المهاوي «التجارية» يرجع بالتأكيد إلى اعتماد التوراة المحشوة بالأساطير والخرافات كمرجع لا نقاش فيه أو حوله كما يعتمدها اليهود وأشياعهم، فما بالنا نحن المسلمين نتبعهم ونسلِّم بما في التوراة ونحن نعلم علم اليقين بأنهم يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً وأنهم يحرِّفون الكلم عن مواضعه، وأنهم لا يتناهون عن منكر فعلوه.

وفي خضم التعصب الوطني، يعطي الكتاب تفسيرات لقصة بني إسرائيل مع فرعون وجنده ما أنزل الله بها من سلطان، ويصور لنا الكتاب أن بني إسرائيل شكلوا طابوراً خامساً مع الهكسوس واستغلوا الفراعنة الطيبين، ولما قهر الفراعنة خصومهم رجعوا وانتقموا من بني إسرائيل!

ونحن نقول لا. وبالاستناد إلى القرآن ولا غير لمثل هذه التفاسير المهلهلة أيّاً كانت دوافعها ومصادرها، فالله سبحانه وتعالى بعث سيدنا موسى للناس كافةً فآمن به بنو إسرائيل لما كانوا يعانونه من ظلم فرعون وجنده، وآمن به بعض المصريين بالخفاء، يقول تعالى: ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم أيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾[1]. وآمن

(1) سورة غافر: الآية 28.

به السحرة رغم العذاب الذي لاقوه والقتل والتنكيل. ففي قصة بني إسرائيل مع فرعون وهي من القصص التي أَولاها القرآن الكثير من التفصيل ثلاثة جوانب متميزة، أولها شخصية سيدنا موسى وهو من أولي العزم وقد لاقى الكثير من العنت والظلم من فرعون وجنده ومن بني إسرائيل أنفسهم، وثانيها فرعون بظلمه وغطرسته وكبريائه واستخفافه بقومه وتأليه نفسه، وثالثها بنو إسرائيل أنفسهم وما جُبلوا عليه من العصيان والجحود، ومن كل هذا المزيج اللامتجانس يبقى جانب واحد مضيء في هذه القصة وهو شخصية سيدنا موسى ومن آمن معه من إسرائيليين ومصريين على حد سواء.

وهكذا يضرب الكتاب بعرض الحائط كل نصوص القرآن الكريم التي تتحدث عن ظلم فرعون وغطرسته لكي يبرر قتل رجال بني إسرائيل واستحياء نسائهم بقوله: «وهكذا تأزمت العلاقات بين المصريين وبين بني إسرائيل، وأصبحت الكراهية والحذر طابعها، واستشار فرعون الكهنة والحكماء وتدارس الجميع الأمر، وانتهوا أن عزلة بني إسرائيل هي مصدر الخطر وإن تكاثر رجالهم يهدد الدولة. واستقر الرأي على التخلص من الأطفال الذكور واستبقاء الإناث، فإذا تم ذلك وتزوجت الإسرائيليات من مصريين انتهت العزلة وتم الاندماج وزال الخطر...».

فحتى لو كانت هذه هي الحقيقة فيجب أن تُذكر بالنقد والتجريح من كتاب يتبنى وجهة نظر إسلامية كما يدعي لا يسردها كقصة القط والفار لا تبرير وراءها سوى جوع القط وقوته. إن إعطاء الشرعية لمثل هذه الأعمال يضعنا في صف واحد مع وحوش الصرب مثلاً والذين فعلوا كل المنكرات ضد مسلمي البوسنة في عمليات التطهير العرقي المعروفة والتي يستنكرها الإسلام ويرفضها رفضاً قاطعاً أياً كانت دوافعها.

وهكذا نرى الكتاب يقع في نفس المطب الذي يقع فيه دارسو تاريخ اليهود عندما يستندون إلى نصوص التوراة المحرفة ويأخذونها على علاتها.

لقد أثبتت كل الدراسات المحايدة للعهد القديم أنه كتب بعد الغزو البابلي

وربما في بابل نفسها، وبعدما عانى اليهود هوان الشتات والسبي، فكانت كل النصوص والأفعال المنسوبة للأنبياء والتي تصورهم على أنهم محبون للقتل والدماء نصوصاً تعبر عن نفسية اليهودي الذي يريد أن يرى العالم غارقاً في الدماء والدمار بعد أن غرق هو في وحل الإهانة والشتات والسبي.

وعليه، فمن وجهة نظر إسلامية خالصة فإن كل الشناعات التي ألصقت بسيدنا داود وسليمان هي مفتريات اخترعها العقل اليهودي المريض كما بينا آنفاً، حتى أنهم اعتبروا الزواج من الأجنبيات عصياناً لأوامر الرب الذي أمرهم بإبقاء «النسل المقدس» لبني إسرائيل نقياً، ومن هذا يتبين سبب إلصاقهم الشناعات بداود وسليمان لأنهم أكثروا الزواج من الأجنبيات.

وفي خضم هذا الهذيان يقول الكتاب وبالاستناد إلى أسفار العهد القديم: «وجاء سليمان بعد أبيه وقد بدأ حكمه بقتل أخيه الأكبر أدونيا، وقتل يواب رئيس جيش أبيه وعزل أبينار الكاهن و...». إن التعصب يذهب بعقل الإنسان ويظهر حماقاته بأبشع صورها، وهذا ما فعله اليهود عندما ألصقوا بسيدنا سليمان كل هذا البهتان لأنهم لم يستطيعوا إنكار زواجه بالأجنبيات وهو الملك الذي بنى الهيكل لعبادة الله، فاتخذوا الهيكل رمزاً لعصيانهم وحماقاتهم وجعلوا من نبي الله سلميان نموذجاً بشعاً لملك متجبر لا غير، وبعدها يأتي كاتب يدعي تبني وجهة نظر إسلامية، ويتناسى كل صفات الأنبياء وأخلاقهم التي رسمها القرآن الكريم في شخصية سيدنا سليمان ليصفه بـ «الملك الصغير» ويقول: «كان من الجائز أن يتنازل فرعون فيقبل في حريمه أميرة بابلية، ولكنه كان يرفض رفضاً باتاً أن يسمح لأميرة مصرية لها ما لها من قداسة أن تصبح زوجةً لعاهل بابلي، فما بالك بملك صغير كسليمان استطاع أن يتزوج أميرةً مصرية...!!»

وإلى هذا الحد نقول لا لمثل هذا الهُراء الوطني، فالكتاب قد ارتكب حماقةً لا تُغتفر بتطاوله على رسول عظيم كسليمان بوصفه بالملك الصغير ثم يعطي صفة القداسة لأميرة فرعونية مُشرِكة وقومها لا يحرمون زواج الأخ بالأخت والولد بالوالدة، والوالد بالبنت وتفاهات أخرى لا حصر لها. وبالإضافة إلى ذلك لو تَعَنَّى الكاتب واعتمد على نصوص التوراة كما اعتمدها بالتجريح على

أنبياء الله ورسله لوجد هذا النص: «وتزوج سليمان ابنة فرعون ملك مصر وأحضرها إلى مدينة داود ريثما يتم إكمال بناء قصر بيت الرب والسور المحيط بأورشليم»[1].

نعم إن التوراة لا تحترم الأنبياء ولا تجلهم وقد جعلتهم مادة لخدمة أهدافها العنصرية واتخذت من شخصياتهم الكريمة شماعات لتعلق كل أخطاء وذنوب بني إسرائيل عليها، وعليه، فلا نجد غير التطاول عليهم، وكل من يتخذها من المسلمين مرجعاً فإنه يرتكب خطأً كبيراً ويعطي تبريراً مقبولاً لكفر بني إسرائيل وأشياعهم وإلا فماذا يعني هذا النصر الذي يرد في هذا الكتاب؟ «وواضح مما تقصه التوراة أن سليمان بدَّدَ ما يملك من المظاهر وأنه أجهض شعبه بالعمل والضرائب...».

إن التفكير الإسلامي يجب أن يسمو فوق كل السفاسف العنصرية والحماقات القومية، فالأنبياء لا يزيدهم شرفاً أن يكونوا ملوكاً كباراً أو صغاراً فمقام النبوة والرسالة أسمى من كل المراكز والمقامات.

وهكذا يقع الكتاب في هوة عميقة في هوة «الموضوعية» الغربية التوراتية قائلاً: «ومن جهة أخرى فإن عصر سليمان اتجه إلى الملاذ والترف أكثر من اتجاهه إلى خدمة الدين والمبادىء...» وهو بذلك يستند إلى ما يقوله ول ديورانت فرحاً وكأنما قد عثر على كنز مفقود: «ولما آل الملك إلى سليمان قتل جميع منافسيه...» أو قول غوستاف لوبون: «وقد عاش سليمان حاكماً شرقياً متباهياً بكثرة آلِهتِه، وبدائرة حريمه المشتملة على مئات النساء وبثيابه الزاهية وبقصوره وحرسه الأجنبي وهو الذي شاد الهيكل عن زهو لا عن زهد...»[2].

إن بني إسرائيل شيء وأنبياؤهم شيءٌ آخر تماماً، أنبيائهم هم أنبياؤنا وقُدوتنا ولا شيء آخر، وهذا ما ينص عليه القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿قل آمنا بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى

(1) العهد القديم، 3/1 سفر الملوك الثاني.

(2) هذه النصوص منقولة من الكتاب المعني نصّاً.

وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾[1]. وكان الأجدر بكتاب يتبنى وجهة نظر إسلامية وينصب من نفسه مُدافعاً عنها أن يبدأ قصة سيدنا سليمان بالآية التالية: ﴿ولقد آتينا داود عِلماً وسليمٰن وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثيرٍ من عباده المؤمنين﴾[2].

إن كل ما ذكرنا لا يمثل إلا مقتطفات متناثرة هنا وهناك في كتاب يمثل من وجهة نظرنا هبوطاً بالفكر الديني الإسلامي إلى مهاوي الفكر التجاري الذي يلتقط نصّاً من هنا ونصّاً من هناك لتبرير أفكار عنصرية متهافتة اشتهر بها مفكرو الغرب المتعصبون واليهود المهووسون بفكر التوراة خصوصاً وأساطير العهد القديم عموماً، ثم تطلى هذه الأفكار بأصباغ «إسلامية» باهتة والإسلام منها براء.

وأما التيار الآخر الذي مثله هذا الكتاب من تيارات الفكر التجاري والذي تعج به كتب أخرى هو تيار الخلط التاريخي لحوادث وقعت قبل مئات السنين أو ألوف السنين بحوادث تقع الآن وربطها بنفس الأسباب، فتأتي الصورة باهتةً إلى أقصى الحدود. وبهذا الخلط يعتبر الكتاب فرعون مصر بطلاً وطنياً من طراز فريد وأن الظلم الذي صبه على بني إسرائيل له ما يبرره ضارباً بعرض الحائط قول الباري عنه: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾[3].

إذن، فنحن أمام ملك ظالم على مجتمع فاسق يقف حجرة عثرة أمام كل الدعوات للخير، وليس في هذا الكلام أي صفة حسنة تميز بني إسرائيل عن المصريين، سوى أن الله سبحانه وتعالى قد منَّ عليهم بأن كان سيدنا موسى منهم وأنه وعدهم إن هم آمنوا بموسى ورسالته فسوف ينجيهم من فرعون وقومه.

ولإعطاء فرعون صورة وطنية عصرية يقول الكاتب: «ومن الغريب أن ما توقعه فرعون مصر القديمة كان الحقيقة الواقعة التي جربها الألمان من اليهود في الحرب العظمى خلال القرن العشرين، وذلك حين تآمرت الصهيونية مع الحلفاء على إثارة

(1) سورة آل عمران: الآية 84.
(2) سورة النمل: الآية 14.
(3) سورة الزخرف: الآية 54.

اليهود في ألمانيا ضد الوطن الذي آواهم، فألقى الحلفاء من الجو على مدنها وثيقة بلفور، إيذاناً لهم بأن يقوموا برسالتهم التاريخية وهي رسالة الغدر الوطني».

إن مثل هذه العبارات لَتُدير رأس الإنسان وتقلب كيانه وتفكيره رأساً على عقب، فلا ندري على ماذا نعلق، فما هو وجه الشبه بين ظرف فرعون وظرف هتلر؟ وما مدى الشبه بين بني إسرائيل ويهود القرن العشرين؟ وما علاقة وعد بلفور الذي أعطِيَ لليهود عام 1917 بأحداث الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن؟ وحتى لو كانت هناك علاقة، هل تطرح على القارىء العادي بمثل هذه البساطة والتفكك الموضوعي؟ قد يقول البعض إن الكتابة الموجهة للقارىء العادي يجب أن تَختلِف عن تلك الموجهة للمتخصص، ونحن نقول نعم هذا صحيح، ولكن ليس هنالك مبرر مطلقاً يقودنا إلى حشو كتبنا بالمغالطات والكلام غير المترابط المثير للمشاعر على طريقة المجلات الرخيصة بحجج وطنية أو قومية أو دينية، فالنتيجة النهائية لذلك ظهور أفكار مشوشة يحملها أناس حمقى متعصبون يظنون أنهم يعلمون وهم في الحقيقة لا يعلمون شيئاً. ومن أمثال هذه المغالطات ما يورده كثير من الكتب ومنها هذا الكتاب عندما يضعون الصليبيين والمغول والإنكليز والفرنسيين والعثمانيين بمنظار واحد ويعاملونهم على أنهم مستعمرون لا غير، وفي بذلك يقول الكتاب: «فنقرر أنه أنزل بالعرب أضعاف هذا العدوان أنزله بهم ظلماً الصليبيون والمغول والعثمانيون والفرنسيون والإنجليز والطليان...». هذه النغمة لم يعرفها العرب المسلمون مطلقاً إلا بعد تنامي الدعوة الطورانية العنصرية على أيدي جمعية تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقي واللتان نجحتا في إقصاء الخليفة عبد الحميد الثاني عام 1909 والذي نعتبره التاريخ الفعلي لسقوط الخلافة الإسلامية، منذ نشأتها بعد وفاة الرسول (ص). فالعرب المسلمون لم ينظروا للخلفاء العثمانيين أو من يمثلهم على أنهم مستعمرون، فهم لم يهدموا الجوامع والمساجد ولا صادروا أموال المسلمين، ولا داسوا على المصاحف بسنابك الخيول، ولم يساوموا على أعراض المسلمين ولا صافحوا اليهود وقبلوا رشاويهم من أجل تسهيل هجرتهم لفلسطين، فكيف نسمح لأنفسنا ونحن ندعو للإسلام بأن نضعهم في صف واحد مع أعداء الإسلام؟

لقد تعودنا على سماع مثل هذا الكلام من كتب الاستشراق، وتحت أسماء وعناوين شتى. أما أن يأتي ممن يدعون الغيرة على الإسلام، فذلك ما لا نضعه إلا تحت خانة المتاجرة بالمبادىء، والله المستعان على كل ضيم.